منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5907) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (14) أيار 2025

ماريو بارغاس يوسا

2025 - 1936

ماريو بارغاس يوسا... مارد الأدب اللاتيني

رشيد وحتي

انطفأت روح الروائي البيروفي ماريو بارغاس يوسا (١٩٣٦ ــ ٢٠٢٥)، مخلّفاً عِبْداً كبيراً من النصوص السرديّة والنقدية، تخلّلتها تقلبات سياسية من الانتساب إلى اليسار التحرُّري وصولاً إلى تبنّي خطاب نيوليبرالي يميني يكاد يكون فاشيا.

كان من أبرز الحاصلين على جائزة "نوبل للآداب" عام ٢٠١٠، لـ "رسمه خرائط هياكل السُّلطة وصوره المحدّدة عن المقاومة الفردية والثورة والفشل"، وفقاً للبيان الصحافي لإعلان الأكاديمية السويدية ساعتئذ.

مثل عدد من المؤلفين الهيسبانو ـ أميركيين، شارك يوسا في السياسة، مع مواقف تحولت تدريجاً من الشيوعية إلى النيوليبرالية، بدعمه مرشحي اليمين المتطرف في تشيلي والبرازيل، مثلما كان مرشحاً في الانتخابات الرئاسية البيروفية عام ١٩٩٠ بدعم من ائتلاف "الجبهة الديموقراطية" (يمين وسط ليبرالي)، لكنه هُزم في الجولة الثانية على يد الشعبوي اليميني ألبرتو فوجيموري.

بعد هذه الهزيمة، غادر البيرو ليستقر في مدريد. يعترف يوسا، الذي تقدم بطلب للحصول على الجنسية الإسبانية وحصل عليها عام ١٩٩٣ من حكومة فيليبي غونزاليس، بأنه يشعر بأنه إسباني بقدر ما يشعر بأنه بيروفي.

وقد أثار هذا الحصول على جنسية ثانية، بعد ثلاث سنوات فقط من ترشحه للانتخابات الرئاسية في بلاده، ردود أفعال سلبية في البيرو. في مسار تكوينه، درس ياسو الأدب والقانون في "جامعة القديس ماركوس"، واشتغل بالتوازي مصحّحاً أدبياً، ثم متعاوناً في قسم السينما في مجلة Literatura وصحيفة El Comercio (بين عامَي ١٩٥٧ و ١٩٥٨).

أثناء دراسته، اكتشف أعمال سارتر والماركسية، التي تركت تأثيراً كبيراً. كما كافح ضد الدكتاتورية العسكرية للجنرال مانويل أودريا.

ولدة وجيزة، انخرط في الفرع الطلابي للحزب الشيوعي البيروفي، الذي تركه احتجاجاً على الخط الستاليني للتنظيم في الفن والأدب. وبفضل منحة دراسية، واصل دراسته الجامعية في الجامعة المركزية في مدريد، حيث دافع في عام ١٩٥٨ عن أطروحته للدكتوراه حول روبين داريو.

ثراء فني وأيديولوجي

إلى جانب كورتاثار، فوينتس، وروفلو، وماركيز وأونيتي، اعتبر يوسا من أهمّ الأسماء في طفرة الأدب اللاتيني الأميركي في ستينيات القرن الماضي؛ عندما نأوَا بدرجات متفاوتة عن السرد التقليدي بتأثير من الحركات الأدبية الأوروبية والأميركية الشمالية الحداثية وما بعد الحداثية التي استعاروا منها تقنيات مبتكرة في تآزيم الرموز الخيالية، وتعدد وجهات النظر السردية، والتعدد الصوتي للساردين، وخلخلة التسلسل الزمني، والاستناد إلى المونولوج الداخلي أو حتى تدفق الوعي على غرار جيمس جويس وويليام فوكنر. فقد كشف أسلوبه الرؤيوي، مع زملائه الروائيين، عن ثراء فني وأيديولوجي وسَمَ القارة الأميركية الجنوبية.

بنشر يوسا لروايته الأولى "المدينة والكلاب" (١٩٦٣)، داع صيته، مؤرِّخا وناقدا لما صار يسمى ثيمة أو رواية الديكتاتور في أميركا اللاتينية، مبتعدا بذلك عن تقليعة الواقعية السحرية السائدة.

سيعود مع رواية "حفلة التيس" (٢٠٠٠) إلى الموضوعة نفسها باستحضاره الأيام الأخيرة للديكتاتور الدومينيكي تروخيُو، ولكن بعُدَّة كتابية أكثر نضجا استثمر فيها البوليفونيا، والأهجية السياسية الملحمية، والتصوير الرومانسي للسلطة عبر روحها الأيبيرية ـ الأميركية الصَّرفة.

في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢١، انتُخب في الجولة الأولى ليشغل المقعد ١٨ في أكاديمية اللغة الفرنسية، الذي أصبح شاغراً بوفاة ميشال سيريس. وكان هذا الانتخاب مفاجئاً، إذ كان الكاتب يبلغ ٨٥ عاما، أي أكبر بعشر سنوات من الحد الأقصى للسن المحدَّدة للانضمام إلى المؤسسة (٧٥ عاماً).

وبذلك أصبح أول أكاديمي لم ينشر باللغة الفرنسية، رغم أنه يجيدها بطلاقة. لم يلقَ تعيينه هذا إجماعا، فقد نُشر مقال بقلم باحثيْن وأكاديميين في صحيفة "ليبيراسيون" (٨ ديسمبر ٢٠٢١)، ينتقدونه لارتباطاته باليمين المتطرف في البيرو.

منذئذ، قسَّم يوسا إقامته بين أوروبا وأميركا الجنوبية، مواصلاً دعم سياسات التقشف التي تنتهجها الحكومات الغربية المحافظة، ولا سيما حكومة أثنار في إسبانيا، وبرلسكوني في إيطاليا.

وتبنّى مواقف المحافظين الجدد بشأن القضايا الدولية، مبررا غزو العراق في عام ٢٠٠٣ والانقلاب العسكري في ٢٠٠٩ ضد حكومة مانويل زيلايا اليسارية في هندوراس.

وفي عام ٢٠٢١، تسارعت وتيرة تحوله نحو اليمين واليمين المتطرف عبر دعم مرشح يميني شعبوي في بيرو، ثم عبر دعم خوسيه أنطونيو كاست، كمرشح يميني متطرف في تشيلي يدّعي أنه وريث دكتاتورية بينوشيه. وفي عام ٢٠٢٢، أعلن تفضيله للمرشح البرازيلي اليميني المتطرف بولسونارو على لولا.

في نيسان (أبريل) ٢٠١٦، ظهر اسمه، إلى جانب اسم زوجته، ضمن ما صار يسمَّى في الصحافة الدولية "وثائق بَنَمَا"، كمستفيد من التهرب الضريبي. كما ظهر اسمه ثانية في وثائق باندورا في عام ٢٠٢١ كمستفيد من شركة مسجلة في عام ٢٠١٥ في جزر فيرجن البريطانية، التي كانت تهدف إلى إدارة حقوق الطبع والنشر الخاصة به، إضافة إلى عائدات مبيعات العقارات التي يمتلكها في مدريد ولندن.

في نهاية المطاف، نحن أمام كاتب أساسي تبنّى مواقف تقدمية وتحررية قبل أن يفرق في أوحال اليمين النيوليبرالي المتطرف ودعم الحركات الفاشية، ناهيك بالتنعُّم الفاسد بمواردِ "الفراديس" الضريبية؛ في مفارقة صارخة مع كل المُثُل التي نادت بها رواياته ومقالاته.

• عن صحيفة الاخبار اللبنانية

رحيل ماريو فارغاس يوسا.. الحياة مجرد كتاب

علي حسين

عندما سئل: لماذا اصبحت روائيا؟، فكر قليلاً ثم قال: الجواب يكمن في طفولتي.. لماذا يحاول استعادة طفولته دائما؟، لأنها الرواية التي يتمنى ان يكتبها ذات يوم. عاش بعض طفولته في بيورا التي يرسمها بشغف ومحبة، ويسترجع الشوارع المزدحمة، وأشجار التمر الهندي، الحرّ والذباب، والعشاق.

ماريو فارغاس يوسا الذي رحل عن عالمنا عن عمر "٨٩" عاما يتذكر كيف انفصل ابوه عن امه قبل أن يولد، وعندما اصطحبته امه الى بوليفيا اخبرته ان والده مات قبل ولادته، وبعد عشرة اعوام سيظهر هذا الأب ليتزوج امه مرة ثانية، وغضب عندما علم ان ابنه يكتب الشعر، كان الاب يربط بين الادب والشرور، والحياة الشاذة، ينتمي الى طبقة برجوازية، مارس عدة مهن، وكانت مهمته في الحياة بعد ان اكتشف ان لديه ابن، ان يزيد من صلابته، فقرر ان يرسله الى معهد تعليمي عسكري في ليما عاصمة البيرو، المدينة التي ولد فيها يوسا في الثامن والعشرين من آذار عام ١٩٣٦، كان المعهد يتسم بالتشدد، وسيصف لنا في روايته الاولى "المدينة والكلاب" الصادرة عام ١٩٦٢، الحياة في هذه المدرسة ومدى شدتها، هناك كان الطلاب يخضعون للنظام العسكري الصارم، يطلب منهم تمجيد القيم العسكرية، يصور لنا بطل الرواية مرعوبا وخائفا من الواقع الذي يشجع على العنف: "كنت مصدوما في هذه المدرسة العسكرية" – الكاتب وعالمه ترجمة بسمة محمد عبد الرحمن – في المدرسة يجري تدريب الطلبة للعمل في عالم من العنف، يروي لنا الوحشية المتفشية التي مورست على مجموعة من الطلاب الشباب.. ليدين من خلالها فساد ذلك العالم وعنفه الدائم.

بدأ في كتابه رواية "المدينة والكلاب" في منتصف عام ١٩٥٨، عندما كان يقيم في مدريد، يحمل اوراقه ويتنقل بين عدد من المقاهي، انتهى منها في شتاء عام ١٩٦١ في غرفة صغيرة أثناء إقامته في باريس. عرضها على العديد من دور النشر التي رفضتها، في النهاية قرر ان يذهب الى الناقد الفرنسي من اصل اسباني كلود كوفون، الذي تحمس للرواية ونصحه الاشتراك في مسابقة للرواية في اسبانيا، تحدث المفاجأة وتفوز الرواية بالجائزة الاولى وسيصفها رئيس لجنة التحكيم بانها عمل ساحر وافضل ما قدمه ادب امريكا اللاتينية منذ عقود.. حصلت الرواية بعد عام على جائزة النقاد الاسبان. واعلنت عن ولادة كاتب روائي سيذهل النقاد بتقنيته الروائية وبالموضوعات الحساسة التي يطرحها، فالرواية بالرغم انها عن حياة الطلبة داخل المدرسة العسكرية، إلا انها تقدم للقارئ عالما مصغرا المجتمع البيروني في طبقاته الاجتماعية المتباينة.

تعرضت "المدينة والكلاب" للكثير من المصاعب حيث تم احراق نسخ منها في البيرو، فيما اصرت الرقابة في اسبانيا على حذف مقاطع كاملة في الطبعة الثانية، ولم تنشر كاملة إلا بعد انتهاء حكم الجنرال فرانكو.

قبل ان يفكر بدخول عالم الرواية حاول ان يتجه الى المسرح، كتب عملا مسرحيا في ١٩٥٢، إلا انه وجد في الرواية عالما اكثر غرائبية: "الروائي يكتب عمله من تجربته الحياتية، مشيدا عالمه المتخيل على أسس الواقع، يقوم الروائي، بالنبش في تجربته الحياتية الخاصة، بحثا عن دعائم ومرتكزات لكي يبتكر قصصا. والكاتب لا يمتلك حرية واسعة جدا في اختياره لموضوعاته، فهذه الموضوعات هي التي تفرض نفسها عليه.. إنها رحيق تجاربه وخبراته التي يبدأ بها لكنها لا تحدد عنده نقطة الوصول، فالروائي مسؤول عن كيفية معالجته فنيا للموضوعات التي هيمنت على ذهنه، ووجّهته للكتابة عنها. إنه يتصاع مع صور ومشاهد وحالات بعينها من هذا العالم، فيكتب قصصه المتخيلة. والطريقة التي يجسدها بها هي ما تجعل من هذه القصص أصيلة أو مبتذلة، عميقة أو سطحية، معقدة أو بسيطة، وهي التي تمنح الشخصيات الكثافة، والغموض والاحتمالية" – الكاتب وعالمه. في سن مبكرة يحلم بالقيام بمغامرات مثيرة مثل احد ابطال تولستوي وجول فيرن والكسندر دوماس، الذين قرأ اعمالهم بشغف، لكن الاكتشاف الابرز له كان جان بول سارتر، قرأ كتبه باعجاب وحماسة عندما كان طالبا في الجامعة، كانت الوجودية آنذاك مؤثرة في العالم كله، ظل أصدقاؤه يسمونه سارتر الصغير: "أنا تلميذ سارتر الذي يعتبر الكلمات أفعالا، ويؤمن أنّ الأدب يغيّر الحياة"، في تلك السنوات ينتمي الى الحزب الشيوعي، لكن افكار سارتر تظل مهيمنة عليه: "برغم من كثرة قراءاتي في الماركسية خلال فترة الجامعة، كانت لدي اختلافات مع الماركسيين بسبب سارتر، لان افكار سارتر عن الادب والعلاقة بين الادب والتاريخ كانت مقنعة جدا بالنسبة لي الناقد الفرنسي من اصل اسباني كلود كوفون، الذي تحمس للرواية ونصحه الاشتراك في مسابقة للرواية في اسبانيا، تحدث المفاجأة وتفوز الرواية بالجائزة الاولى وسيصفها رئيس لجنة التحكيم بانها عمل ساحر وافضل ما قدمه ادب امريكا اللاتينية منذ عقود.. حصلت الرواية بعد عام على جائزة النقاد الاسبان. واعلنت عن ولادة كاتب روائي سيذهل النقاد بتقنيته الروائية وبالموضوعات الحساسة التي يطرحها، فالرواية بالرغم انها عن حياة الطلبة داخل المدرسة العسكرية، إلا انها تقدم للقارئ عالما مصغرا المجتمع البيروني في طبقاته الاجتماعية المتباينة.

تعرضت "المدينة والكلاب" للكثير من المصاعب حيث تم احراق نسخ منها في البيرو، فيما اصرت الرقابة في اسبانيا على حذف مقاطع كاملة في الطبعة الثانية، ولم تنشر كاملة إلا بعد انتهاء حكم الجنرال فرانكو.

قبل ان يفكر بدخول عالم الرواية حاول ان يتجه الى المسرح، كتب عملا مسرحيا في ١٩٥٢، إلا انه وجد في الرواية عالما اكثر غرائبية: "الروائي يكتب عمله من تجربته الحياتية، مشيدا عالمه المتخيل على أسس الواقع، يقوم الروائي، بالنبش في تجربته الحياتية الخاصة، بحثا عن دعائم ومرتكزات لكي يبتكر قصصا. والكاتب لا يمتلك حرية واسعة جدا في اختياره لموضوعاته، فهذه الموضوعات هي التي تفرض نفسها عليه.. إنها رحيق تجاربه وخبراته التي يبدأ بها لكنها لا تحدد عنده نقطة الوصول، فالروائي مسؤول عن كيفية معالجته فنيا للموضوعات التي هيمنت على ذهنه، ووجّهته للكتابة عنها. إنه يتصاع مع صور ومشاهد وحالات بعينها من هذا العالم، فيكتب قصصه المتخيلة. والطريقة التي يجسدها بها هي ما تجعل من هذه القصص أصيلة أو مبتذلة، عميقة أو سطحية، معقدة أو بسيطة، وهي التي تمنح الشخصيات الكثافة، والغموض والاحتمالية" – الكاتب وعالمه. في سن مبكرة يحلم بالقيام بمغامرات مثيرة مثل احد ابطال تولستوي وجول فيرن والكسندر دوماس، الذين قرأ اعمالهم بشغف، لكن الاكتشاف الابرز له كان جان بول سارتر، قرأ كتبه باعجاب وحماسة عندما كان طالبا في الجامعة، كانت الوجودية آنذاك مؤثرة في العالم كله، ظل أصدقاؤه يسمونه سارتر الصغير: "أنا تلميذ سارتر الذي يعتبر الكلمات أفعالا، ويؤمن أنّ الأدب يغيّر الحياة"، في تلك السنوات ينتمي الى الحزب الشيوعي، لكن افكار سارتر تظل مهيمنة عليه: "برغم من كثرة قراءاتي في الماركسية خلال فترة الجامعة، كانت لدي اختلافات مع الماركسيين بسبب سارتر، لان افكار سارتر عن الادب والعلاقة بين الادب والتاريخ كانت مقنعة جدا بالنسبة لي والعلاقة بين الادب والتاريخ كانت مقنعة جدا بالنسبة لي الى الدرجة انني لم استطع قط ان اقبل العقيدة الرسمية للحزب"، لم تستمر علاقته بالماركسية طويلا، سخر من الواقعية الاشتراكية، واعجب بفكرة سارتر من ان الادب شديد الارتباط بالزمن المعاصر، وانه من غير المقبول استخدام الادب في الهروب من المشاكل المعاصرة. قال ان كل ما يكتب بالإسبانية فيه رائحة ثرفانتس، مثلما كل ما يكتب في الانكليزية فيه رائحة شكسبير، هكذا ظل الحلم الحساسة ملحمة شيطانية في امكنة وفضاءات مختلفة. اغرم بفوكنر وكان الكاتب الامريكي الشهير صلة الوصل بين يوسا وماركيز: "كنا معا من كبار المعجبين بفولكنر. في مراسلاتنا المتبادلة كنا نتحدث كثيرا عن فولكنر، عن الطريقة التي اندفعنا بها لاكتشاف الفن الحديث، بما فيه أسلوب السرد بدون احترام التسلسل الزمني، وتغيير وجهات النظر."

في روايته الرابعة "حرب نهاية العالم" – ترجمة امجد حسين – والتي نشرت عام ١٩٨١، يعدها النقاد اول محاولاته في كتابة الرواية التاريخية، الرواية تسلط الضوء على الكوارث التي يسببها التعصب، تفرغ كتاباتها اربعة سنوات، قال انه وجد صعوبة لان يكتب عن بلد غريب عنه "البرازيل"، وعن عصر لم يعشه، وان يعمل مع شخصيات تتحدث بلغة لم تكن هي لغته، ستحصد الرواية شهرة كبيرة سيقول عنها انها الرواية الاكثر اهمية بالنسبة له: "هذه الرواية مثلت تحديا مرعبا لي كنت اريد ان اتغلب عليه،في البداية كنت قلقا جدا،فكمية مواد الابحاث الضخمة جعلتني اشعر بالدوار، مسودتي الاولى كانت ضخمة،كان حجمها بقدر حجم الرواية مرتين تقريبا،وسألت نفسي كيف ساتمكن من تنسيق كل تلك المجموعة الضخمة من المشاهد،الالاف من القصص الصغيرة".

يوسا الذي احتفل عيد ميلاده الـ "٨٩" قبل اشهر قليلة قال ان معظم رواياته هي نتاج ذاكرته في بلدته "بيورا" لانها كشفت له حقيقة الانظمة المستبدة، حيث ان ثيمة الدكتاتورية السياسية "ستصبح ملازمة لمعظم رواياته، والتي توجها برواية الكبيرة "حفلة التيس" عبر فضح شخصية الدكتاتور "رافائيل تروخيليو" الذي حكم جمهورية الدومنيكان بين ١٩٣٠و١٩٦٠. وفيها يختزل يوسا القديمة، باعتبارهما مطروقة، بل على العكس، مثلما تفعل انت ومثلما احاول ان افعل، يجب الامساك بهما من البداية من اجل اختراقهما عبر الطريق الصحيح".

روايته الثالثة "حوار في الكاتدرائية" صدرت عام ١٩٦٩ يصور فيها الجو السياسي في البيرو في اثناء حكم "مانويل اودريا، وكانت فترة حكم دكتاتورية فاسدة امتدت من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٦ اصبح يوسا اكثر وضوحا بموقفه حول العلاقة بين الادب والسياسة، فهو يعلن بوضوح ان على الكاتب ان يكون على اتصال دائم بالواقع، فهو يعقد فكرة الروائي المنعزل الذي يقطع علاقته بكل شيء، لان هذه القطيعة ستنتج ادبا "لا يمكن ان يكون نقيا"، لكنه في الوقت نفسه ظل يعيب على الادب ارتباطه بالقضايا الراهنة، وفي المقال الذي نشره عن رواية "مئة عام من العزلة" يؤكد ان الادب، خلافا للسياسة، لا يمكن ان يكون مرتبطا بالراهن، إذ عليه ان يتجاوز ويصل الى مجتمعات مختلفة في امكنة وفضاءات مختلفة. اغرم بفوكنر وكان الكاتب الامريكي الشهير صلة الوصل بين يوسا وماركيز: "كنا معا من كبار المعجبين بفولكنر. في مراسلاتنا المتبادلة كنا نتحدث كثيرا عن فولكنر، عن الطريقة التي اندفعنا بها لاكتشاف الفن الحديث، بما فيه أسلوب السرد بدون احترام التسلسل الزمني، وتغيير وجهات النظر."

في روايته الرابعة "حرب نهاية العالم" – ترجمة امجد حسين – والتي نشرت عام ١٩٨١، يعدها النقاد اول محاولاته في كتابة الرواية التاريخية، الرواية تسلط الضوء على الكوارث التي يسببها التعصب، تفرغ كتاباتها اربعة سنوات، قال انه وجد صعوبة لان يكتب عن بلد غريب عنه "البرازيل"، وعن عصر لم يعشه، وان يعمل مع شخصيات تتحدث بلغة لم تكن هي لغته، ستحصد الرواية شهرة كبيرة سيقول عنها انها الرواية الاكثر اهمية بالنسبة له: "هذه الرواية مثلت تحديا مرعبا لي كنت اريد ان اتغلب عليه،في البداية كنت قلقا جدا،فكمية مواد الابحاث الضخمة جعلتني اشعر بالدوار، مسودتي الاولى كانت ضخمة،كان حجمها بقدر حجم الرواية مرتين تقريبا،وسألت نفسي كيف ساتمكن من تنسيق كل تلك المجموعة الضخمة من المشاهد،الالاف من القصص الصغيرة".

يوسا الذي احتفل عيد ميلاده الـ "٨٩" قبل اشهر قليلة قال ان معظم رواياته هي نتاج ذاكرته في بلدته "بيورا" لانها كشفت له حقيقة الانظمة المستبدة، حيث ان ثيمة الدكتاتورية السياسية "ستصبح ملازمة لمعظم رواياته، والتي توجها برواية الكبيرة "حفلة التيس" عبر فضح شخصية الدكتاتور "رافائيل تروخيليو" الذي حكم جمهورية الدومنيكان بين ١٩٣٠و١٩٦٠. وفيها يختزل يوسا

وبمهارة عالية كل الاعمال الادبية والفكرية التي استغلت على موضوعة تعسف السلطة وابرزها بالتاكيد، "خريف البطريرك" لماركيز، و"السيد الرئيس" لميغيل استورياس. في هذه الرواية يمزج صاحب "في مديح الخاله" مواصفات رواية العصور الوسطى التي توجت بالنموذج الاهم "دون كيشوت" بتقنية الرواية البوليسية وخصوصا في روايات جورج سيمنون من دون إهمال التراث الروائي لكتاب امريكا اللاتينية. يقول يوسا عن حفلة التيس "ان الواقع يتجاوز في هوله المتخيل، فخلال ثمانية اشهر من اللقاءات والشهادات عن ماحصل في زمن الطاغية تروخيلو، هذا الطاغية الاستعراضي الذي يخبئ عينيه الروحيتين وراء نظارة سوداء، اردت ان اقدم خلاصة لكن الواقع كان اكثر عنفا ووحشية من كل ماكتب في الرواية.

العام ٢٠١٠ يحصل على جائزة نوبل للاداب، آنذاك قال لزوجته التي تلقت مكالمه هاتفية من الاكاديمية السويدية "مازلت لا اصدق ذلك"، بعد ذلك اخبر زوجته بأنّا تخبر الاولاد شيئا ربما ينتهي الامر بمزحه مثل كل عام لقد ظل يوسا ينتظر هذه الجائزة منذ اكثر من عشرين عاما، موقنا من أنه سينالها، ولكن خيبة الأمل ظلت تواجهه سنة بعد أخرى. يقول مترجم اعماله الى العربية صالح علماني: "أن الأيام التي كانت تسبق إعلان الجائزة كل عام تتحول إلى كابوس في منزل الكاتب. فالأسرة كلها تظل متوترة، مشدودة الأعصاب، تنتظر اتصالا لا يأتي". وحين تأكد الخبر هذه المرة؛ قال يوسا لاحدى الصحف الاسبانية" سوف اسير في الشوارع لاتلني اشعر بالدوار، ان الجائزة سقطت على مثل الصاعقة، ساعود الى البيت لاكتب من جديد.

قال انه يحب ان يموت وهو يكتب. صاحب "خمس زوايا" – ترجمة مارك جمال وصالح علماني – التي ياخذنا فيها إلى فترة رئاسة ألبرتو فوجيموري البيرو الذي ترشح ضده لمنصب رئاسة الجمهورية في البيرو، قبل أن يتفوق عليه فوجيموري مع الأحزاب اليسارية، عام ٢٠٠٠ سيخسر الانتخابات من جديد. قال انه ايقن انه كاتب لا سياسي، هاجمه النقاد لان السياسة لوثت ادبه العظيم، اصيب بالاحباط فقرر ان يترك بلده ليعيش في اسبانيا التي منحته جنسيتها وينتقل بين أوروبا والبيرو، قال انه ينفر من المثاليات الثورية ويرى في التطرف السياسي والديني أصل العنف.

سخرت منه الصحافة الاشتركية لكنه واجهها بالقول انه لم يندم على ترشيحه على رغم انه كان "خطا رهيبا". قال عنه سلمان رشدي: "ما عاد اشتراكيا، كما ترون".

في حوار معه يصف نفسه: "انا رجل من القرن العشرين ذو ردود وافكار وغرائز بدائية متناقضة.. انا نصف متمدن ونصف بدائي والصراع واضح في روايتي جميعا".

يوسا: رحيل كاتب معهم

أمير تاج السر

منذ أيام قليلة، رحل ماريو فارغاس يوسا، البيروفي، أحد عظماء الكتابة في أمريكا اللاتينية، مع كتاب مثل بورخيس وأستورياس، وخوليو كورتاثار، وبالطبع غابرييل غارسيا ماركيز، وكانوا صنعوا عوالم جديدة، ومدهشة، وضعت أدب أمريكا اللاتينية في صدارة الآداب العالمية، وامتد تأثيره إلى أي مكان، وحتى نحن في بلاد العرب، تأثرنا به كثيرا.

يوسا الذي ينحو منحى آخر فيه الكثير من الفلسفة، والسخرية، وأحيانا الإيديولوجية، يفضله الكثيرون على ماركيز، ويرون أنه قدم أعمالا أفضل وأعمق من أعمال ماركيز، لكني لا أرى الأمر كذلك. فكلا الكاتبين قدما ما استطاعا تقديمه، حسب طريقة كل منهما، والأمر في النهاية كما نقول دائما، تذوق بحت. أنا مثلا أقرأ يوسا، ويعجبني في بعض أعماله، لكني أعشق ماركيز، وقرأت أعماله كلها، مرات عديدة ولم أمل. غيري يفعل العكس، وهذا مشروع بكل تأكيد.

لا يوجد اتفاق على كاتب أبدا، حتى سارماغو الذي يوصف بالعظمة والتجاوز، ويعد الحديث عنه بسلبية نوعا من عدم الاحترام، أنا لم أتفاعل مع أسلوبه أبدا. تعجبني أفكاره، لكن الأسلوب فيه كثير من التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، ولو اتخذنا رواية "موت ريكاردو ريس" مثالا، لعثرنا على تلك التفاصيل المزعجة التي يفر بسببها وعي القراءة. لقد ظلت هذه الرواية على جدول قراءاتي أعواما، ولم أنهها بعد.

يوسا كما نعرف كلنا أنتج روايات عديدة مهمة، منها "مديح الخالة"، أو "امتداد الخالة"، وهي رواية مشهورة، وفيها علاقة غريبة بين الولد وزوجة أبيه، وأظنها جرأة الكتابة ما خرجت لنا بمثل هذه الرواية. أيضا كتب "شيطنات الطفلة الخبيثة"، وفيها شيء من الحب والسياسة، وروايته الأخرى الجميلة الساخرة، والتي تحمل فكرة مدهشة، لا يكتبها إلا واحد مثله "بنتالين والزائرات"،

هذه الرواية التي تؤطر لفكرة تأطير الترفيه الجنسي للجنود في الجيش، بإنشاء كتيبة من النساء المرفهات، يقمن بواجبهن مثل أي مجند آخر، والواجب هو الترفيه الجنسي، بدلا من أن يخرج الجنود في إجازاتهم للبحث عن أماكن للمتعة، أو يداهمون نساء الفلاحين في الأحراش البعيدة التي يقطنون فيها.

طبعا الرواية يفترض أن تكون مبتذلة، لكن العكس حدث، فليس ثمة ابتذال، هي في رأيي فكرة ساخرة أكثر منها جادة. وكانت الترجمة العربية التي أنجزها صالح علماني، شديدة الجمال، مثل تراجم صالح المعروفة، وكنت وصفته مرة بأنه يكتب النص العربي للكتاب الذي يترجمه، ولا يكتفي بالترجمة فقط.

ماركيز حصل على جائزة نوبل مبكرا بالنسبة ليوسا، الذي حصل عليه بعد أن شاخ وكما أذكر في عام ٢٠١٠، وما زلت أذكر كلماته التي عبر بها عن فرحته بالجائزة، وكان كما ذكر مدعوا لإلقاء سلسلة من المحاضرات في نيويورك، وكانت معه زوجته. ومعروف أن يوسا أستاذ جامعي أيضا، بجانب عمله ككاتب روائي، يقول يوسا واصفا لحظة اتصال لجنة نوبل به إنه لم يصدق في البداية ذلك الاتصال، وظنها مزحة أو مقلبا من أحد أصدقائه، لا لعدم ثقته في مكانته التي ترتقي به إلى أي جائزة، ولكن لعدم تفكيره في الجائزة باعتبارها حلما مشتركا، يتزاحم عليه عشرات الحالمين كل عام، وبعضهم مدرج على ذلك الحلم منذ أكثر من ثلاثين عاما. ولم يستطع إطلاق فرحته من عقالها، وإخبار زوجته النائمة قربه، إلا حين أذيع النبأ رسميا في الأخبار، في اليوم التالي.

وهذه الفقرة توضح لنا كم هي رائعة الجوائز، وتشد الاحتفاء والاحتفال، ويمكن أن تلفت نظر واحد متأمل في الكتابة، ولا حاجة به إلى جائزة أو قيمة مالية لجائزة، وأظن أن ذلك نوع من الإحساس بالاهتمام ما تكتبه، بعيدا عن أرقام التوزيع وعدد القراء.

أتحدث هنا عن مسألة الاحتفاء بالكاتب عموما، وقراءة أعماله لدى الناس، وأعتقد أن ذلك ليس متساويا لدى كل الكتاب حتى لو كانوا مشاهير، أو يكتبون بجدية وعمق مثل يوسا. أنا أعتقد بأن يوسا بالرغم من شهرته وحصوله على جائزة نوبل، هناك من لا يعرفه حتى في أمريكا اللاتينية، وعندنا عربيا كثيرون لا يعرفونه، أو لم يقرأوا له، وانتبهت إلى ذلك بعد إعلان وفاته حيث كتب كثيرون محتكون بالكتابة والقراءة بشدة، وبعضهم روائيون، يسألون عن أهم مؤلفاته، ليحاولوا القراءة له.

أنا لم أستغرب ذلك كما قلت، الترجمة للعربية تجذب أن سألني أحدهم: هل تعرف الكاتب ماركوربولو، الذي توفي اليوم؟

وبالطبع صححت له الاسم، ولم يبد نادما على إيراد اسم خطأ لكاتب، لم يرد أن يسمع به، وجاء اسمع بغتة حين أعلن نعيه.

في النهاية تستطيع أن تقول إن الكتابة معاناة، والشهرة معاناة أكبر، ولو لا أن هناك حوافز قد تصيب البعض، أو يصيبها البعض، لظل القحط المادي سمة من سمات الإبداع.

لا أظن أن أمريكا اللاتينية الإبداعية، هي هؤلاء الكتاب القليلين الذين نعرفهم ونقرأ لهم، مؤكد يوجد آلاف غيرهم لم يصلوا إلينا ولن يصلوا.

كل ما في الأمر أننا نحب من وصلنا، نحب ماركيز ويوسا وبورخيس، ونتأسف على رحيلهم، لأن ما قدموه كان فيه الكثير من المتعة والمعرفة.

• عن القدس العربي

رحيل ماريو بارغاس يوسا... نسّاج الأحلام وصوت الحرية

مروان ياسين الدليمي

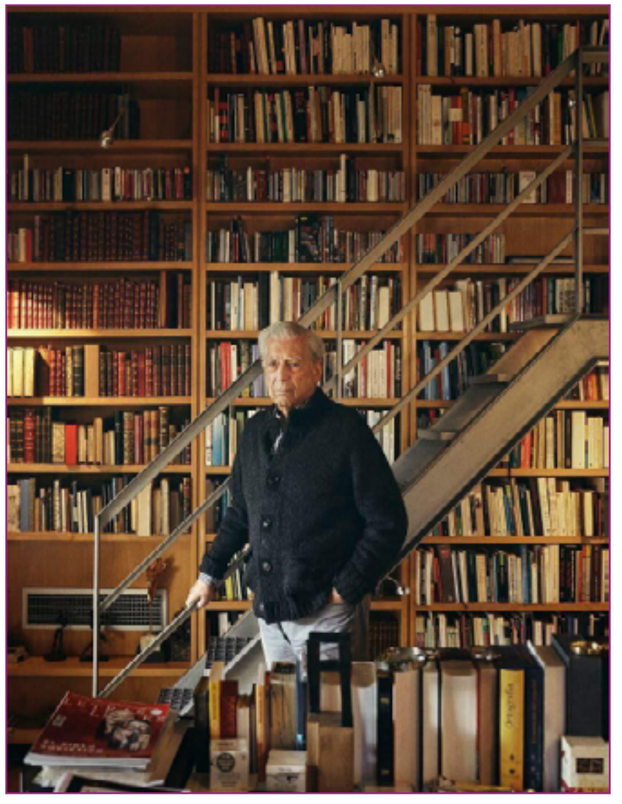

في ١٣ نيسان ٢٠٢٥، طوى القدر صفحة قامة أدبية وفكرية شامخة، هو البيروفي الحائز نوبل للآداب ماريو بارغاس يوسا. لم يكن الراحل مجرد روائي عابر، بل كان صوتا مدويا أثرى سماء الفكر والثقافة العالميين، وبذكاء حاد وموهبة فذة، أعاد تشكيل ملامح الأدب اللاتيني، محولا إياه إلى جسر متين يربط بين عوالم الإنسان الخاصة وهمومه الكونية. يوسا، عراب الرواية البيروفية الذي استقر في ذاكرة التاريخ، ترك بصمات عميقة لا تُمحى على امتداد القرنين العشرين والحادي والعشرين. لقد كان في محراب الأدب، مهندسا بارعا للسرد، يزاوج بمهارة نادرة بين جرأة التجريب التقني وعمق الواقعية النقدية. ففي رحاب رواياته الخالدة، كـ"حرب نهاية العالم" و"حديث في الكاتدرائية"، تتجلى قدرته الاستثنائية على نسج عوالم روائية أسرة، تستكشف بدقة وتعقيد خبايا المجتمع ودهاليز النفس البشرية. وبأسلوبه المتعدد الأصوات، الذي يتسم بالتداخل الزمني والحوارات الممتدة، كان يوسا يمنح قارئه متعة أدبية رفيعة المستوى، مصحوبة بتحدٍ فكري يوقظ الذهن.

البدايات

في ٢٨ مارس/ آذار ١٩٣٦، أبصر خورخي ماريو بيدرو بارغاس يوسا النور في مدينة أريكيبا الجنوبية في بيرو، لعائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة. وقد طبعت طفولته المبكرة تجربة انفصال والديه، بمزيج من الشوق والتحدي. عاش بعض سنواته الأولى في بوليفيا، حيث انتقلت عائلته، قبل أن يعود إلى بيرو ليتلقى تعليما صارما في أكاديمية ليونسيو برادو العسكرية. هذه التجربة القاسية، التي وصفها لاحقا بأنها شكلت مادة خاما لروايته الأولى "المدينة والكلاب" (١٩٦٣)، حققت نجاحا مدويا وحصدت العديد من الجوائز المرموقة.

التحق يوسا بجامعة سان ماركوس الوطنية في ليما، حيث نهل من علوم القانون والآداب، وبدأ وعيه يتشكل بتأثير الأفكار السياسية اليسارية في شبابه. وقاده شغفه العميق بالقراءة والكتابة إلى باريس في ستينات القرن العشرين، حيث عمل صحافيا وكاتبا ناشئا، منغمسا في الأجواء الأدبية الأوروبية واللاتينية الزاخرة. وفي باريس، ترسخت علاقته بكتاب "الطفرة الأدبية" في أميركا اللاتينية، أمثال غبريال غارسيا ماركيز وخوليو كورتازار، ليصبح جزءا لا يتجزأ من هذه الحركة الأدبية المؤثرة الجريئة التي أعادت صياغة مفهوم الرواية اللاتينية، فمزجت ببراعة أسرة بين صلابة الواقع وخصوبة الخيال، وجرأة التجريب في تقنيات السرد وعمق الغوص في تعقيدات المجتمعات اللاتينية.

في رحاب رواياته البانخية، كـ"البيت الأخضر" (١٩٦٦) و"حديث في الكاتدرائية" (١٩٦٩)، تجلت قدرته الفائقة على نسج حكايات متشابكة الخيوط، تكشف النقاب عن براثن الفساد، وطغيان الظلم، وصراعات السلطة المتأصلة في تربة بيرو وخارجها. ففي "البيت الأخضر"، استكشف التناقضات الحادة بين مختلف الثقافات البيروفية، بينما في "حديث في الكاتدرائية"، رسم بفرشاة فنان متمكن لوحة قاتمة تجسد عبث السياسة ونفاقها المتجذر في ظل حكم الديكتاتورية. أما تحفته الروائية "حرب نهاية العالم" (١٩٨١)، فتعد من أمهات أعماله، حيث أعاد صوغ أحداث ثورة كانودوس في البرازيل، أواخر القرن التاسع عشر، بأسلوب يجمع بين دقة المؤرخ وجمالية الأسطورة. تناولت الرواية بجرأة قضايا التعصب والعنف والمقاومة، وكشفت عن طموحه الذي تجاوز حدود بيرو الضيقة ليلامس قضايا إنسانية ذات بعد عالمي. وفي "حفلة التيس" (٢٠٠٠)، قدم روايات عميقة حول طبيعة الديكتاتورية من خلال تناول مواضيع السلطة والمقاومة، حيث شجع الكتّاب على توجيه سهام النقد إلى الأنظمة الديكتاتورية، كما فعل في روايته "حفلة التيس" (٢٠٠٠). ولم يحصر نطاق كتاباته في حدود بيرو فحسب، بل تناول قضايا إقليمية شملت البرازيل وجمهورية الدومينيكان، مما جعل أدبه صوتا جامعا ومعبرا عن آمال وآلام أميركا اللاتينية بأسرها. وقد ساهمت ترجمة أعماله إلى عشرات اللغات في فتح نافذة للقارئ العالمي لرؤية هذه المنطقة بعيون جديدة، بعيدا من الصور النمطية السائدة.

امتد أثره عميقا ليشمل الأجيال اللاحقة من الكتّاب، مثل إيزابيل أليندي وروبرتو بولانيو، أشجعهم على دمج الخاص بالعام والذاتي بالسياسي في أعمالهم. كما عززت مقالاته ومشاركاته الفاعلة في النقاشات الثقافية من دور المثقف اللاتيني كفاعل مؤثر على الساحة العالمية. وعلى الرغم من الانتقادات التي وُجهت لبعض مواقفه السياسية، فإنه لا يمكن إنكار حقيقة أنه أعاد تعريف الهوية الأدبية لأميركا اللاتينية، وجعل منها مركزا للإبداع الأدبي المتجدد.

لم يتوقف تأثيره عند حدود أميركا اللاتينية، فقد ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة حية، وتحولت روايات خالدة مثل "بانتاليون والزائرات" و"العمة جوليا وكاتب النصوص" إلى أفلام سينمائية لاقت رواجا عالميا. كما ألهم أجيالا من الكتّاب بأسلوبه الفريد الذي يجمع ببراعة بين عمق الواقعية الاجتماعية وجمالية التجريب الأدبي.

في عام ٢٠٠٣، بعد أن هدأت عاصفة الغزو الأميركي للعراق، شدّ الرحال نحو أرض الرافدين المخثضة بالجراح. رحلة استغرقت عشرة أيام، نقشت تفاصيلها في سجل يومياته التي تجسدت لاحقا في سفر بعنوان "يوميات العراق". لم تكن هذه الزيارة مجرّد فضول عابر، بل كانت امتدادا لولعه باستكشاف بؤر الصراع والتحولات السياسية والثقافية التي تمزق أوصال العالم، كما فعل في بقاع أخرى من المعمورة. خلال إقامته، استنفر يوسا حواسه المرهفة وعقله الوقاد لفهم كنه الواقع العراقي المضطرب في أعقاب سقوط عرش صدام حسين، متجاوزاً أحكامه المسبقة، ساعيا بصدق لتقديم صورة حية نابضة بالنبض الإنساني للبلاد من خلال تجربته المباشرة.

خطت قدماه أرض شارع المتنبي الأسطوري، ذلك الشريان النابض بالروح الثقافية والتاريخية، وملتقى عشاق الكتب ومرتع المثقفين. وصفه يوسا بـ"غابة من الكتب"، فضاء يلتئم فيه عبق الماضي مع إشراقة الحاضر. لم يقتصر شغفه على استكشاف المشاهد الثقافية فحسب، بل امتد ليشمل محاولة فهم التحديات الاجتماعية والسياسية العميقة التي كانت تعصف بالبلاد. ففي صفحات يومياته، تحدث بأسى عن الفوضى التي أعقبت الغزو، والتناقضات الصارخة بين الأمل المتوهج في بناء صرح الديمقراطية والعنف المستشري الذي اجتاح البلاد كالنار في الهشيم.

ألهم أسلوبه التجريبي الفريد، بتعدد الأصوات وتداخل الأزمنة، جيلا من الكتّاب اللاتينيين لاستكشاف آفاق جديدة في تقنيات السرد المعقدة، كما تجلى بوضوح في روايته "حرب نهاية العالم".

وعندما سطر يوسا مقالاته عن العراق في صحيفة "إل باييس" الإسبانية المرموقة، تجنّب الوقوع في براثن التبسيط أو الانزلاق في مستنقع الأيديولوجيا الضيقة. وبدلا من ذلك، قدّم وصفا دقيقا يعكس تعقيدات المشهد العراقي بكل تفاصيله الدقيقة، مستلهما في ذلك تجربته الثرية كصحفي وروائي متمرس. فكتب عن أناس عاديين يكابدون الحياة، وعن صخب الأسواق، ودفء المقاهي، والحوارات العميقة التي أجراها، مما جعل من يومياته مزيجا فريدا من التقرير الصحفي الحي والتأمل الأدبي العميق.

زياراته لمناطق أخرى

كان شغوفا بالسفر واستكشاف مناطق مختلفة حول العالم، لإثراء تجربته الأدبية والفكرية. فقد تجوّل في العديد من المناطق، سواء في أميركا اللاتينية، أو أوروبا وأفريقيا، أو آسيا، تاركا انطباعاته في مقالات ويوميات، وأحيانا أعمال روائية. ولأنه بيروفي، كانت أميركا اللاتينية المسرح الأساسي لتجربته الأدبية والشخصية. زياراته داخل القارة كانت غالبا مرتبطة بجذوره وبحثه عن مادة لرواياته: عاد مرات عديدة إلى مدن مثل ليما وأريكيبا، حيث وُلد. كما زار غابات الأمازون البيروفية، التي شكّلت خلفية لرواياته عن التفاعل بين الثقافات المحلية والخارجية.

في إطار بحثه لكتابة "حفلة التيس" زار جمهورية الدومينيكان لدراسة تأثير دكتاتورية رافاييل تروخيو. التقى مؤرخين وشهود عيان، وقضى وقتا في سانتو دومينغو لفهم السياق الاجتماعي والثقافي، مما ساعده على رسم صورة دقيقة للنظام الاستبدادي.

زار مناطق في البرازيل، خاصة للبحث عن روافد لروايته "حرب نهاية العالم" (١٩٨١)، التي استندت إلى ثورة كانودوس في القرن التاسع عشر. تجوّل في ولاية باهيا، حيث وقعت الأحداث، لفهم الجغرافيا والثقافة المحلية، مما أضفى على الرواية عمقا تاريخيا وإنسانيا.

في أوروبا وأفريقيا

في الخمسينات والستينات، قضى يوسا سنوات في باريس، حيث عمل صحافيا وكاتبا ناشئا. كانت باريس مركزا لكتاب "الطفرة الأدبية"، وهناك توطدت علاقته بغابرييل غارسيا ماركيز وخوليو كورتازار. زار المقاهي الأدبية مثل كافيه فلور، وشارك في نقاشات فكرية غذّت أعماله المبكرة.

بعد حصوله على الجنسية الإسبانية عام ١٩٩٣، أصبح زائرا منتظما لمدريد وبرشلونة. كتب مقالاته في صحيفة "إل باييس"، وشارك في معارض الكتاب والمهرجانات الأدبية. كما زار مدن الأندلس مثل إشبيلية وغرناطة، مستلهما بعض مقالاته عن التاريخ الإسباني وتأثيره على أميركا اللاتينية.

كما زار عدة دول أفريقية كجزء من اهتمامه بالقضايا العالمية، خاصة تلك المتعلقة بالاستعمار والهوية: في إطار بحثه لروايته "حلم السلتي" (٢٠١٠)، التي تناولت حياة روجر كيسمنت، زار الكونغو لفهم السياق التاريخي للاستعمار البلجيكي. تجوّل في مناطق تأثرت بالاستغلال الاستعماري، والتقى مؤرخين محليين لتوثيق التفاصيل التي أثرت روايته.

زار جنوب أفريقيا في التسعينات، بعد انتهاء الفصل العنصري. كتب مقالات عن عملية المصالحة بقيادة نيلسون مانديلا، معبرا عن إعجابه بالتحول الديمقراطي رغم التحديات. هذه الزيارة عززت آراءه حول الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية.

عين الأديب وقلب المستكشف

امتد فضوله إلى آسيا والشرق الأوسط، حيث سعى لفهم ثقافات مغايرة: زار إسرائيل والضفة الغربية عام ٢٠٠٥، بدعوة من منظمات ثقافية. كتب كتابا بعنوان "إسرائيل/فلسطين: السلام أو الحرب المقدسة"، حيث وثّق لقاءاته مع سياسيين وكتاب ومواطنين من الجانبين. حاول تقديم رؤية متوازنة للصراع، مع التركيز على تعقيدات الهوية والسلام.

زار اليابان في الثمانينات، حيث شارك في مؤتمرات أدبية والتقى كتابا مثل يوكيو ميشيما. كتب عن انبهاره بالتناقض بين التقاليد اليابانية والحداثة، مما أثر على مقالاته عن العولمة.

زياراته لمناطق العالم المختلفة جعلت منه ليس فقط روائيا عظيما، بل شاهدا على تعقيدات القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. من غابات الأمازون إلى شوارع بغداد، ومن مقاهي باريس إلى قرى الكونغو، كان يحمل معه قلما يسجّل نبض الإنسانية.

لم يكن يوسا كاتبا فحسب، بل مفكرا عاش من أجل الحرية، سواء في الأدب أو السياسة. قوله الشهير: "الأدب هو أفضل ما اخترع للوقاية من التعاسة" يعكس إيمانه بقدرة الكلمة على تحرير الإنسان. رواياته، التي استكشفت السلطة والمقاومة والحب، ستبقى دليلا على عبقريته في التقاط تعقيدات الروح البشرية. إن إرثه الأدبي الثري، الممتد من "المدينة والكلاب" التي أطلقت شرارة إبداعه، وصولا إلى "مديح الخالة"، سيبقى منارة تضيء دروب الأدب والفكر، يلهم الأجيال المقبلة بقوة الكلمة وسحر البيان. برحيله، يفقد العالم صوتا نادرا، لكن إرثه سيظل حيا في صفحات كتبه، في نقاشاته الفكرية، وفي قلوب قرائه.

في ١٩٩٠، خاض غمار المعترك السياسي وترشح لمنصب رئيس بيرو ممثلا لحزب الجبهة الديمقراطية (فريديمو)، لكن القدر لم يحالفه وخسر الانتخابات أمام ألبرتو فوجيموري. وبعد خسارته، انتقل إلى إسبانيا وحصل على جنسيتها عام ١٩٩٣، لكنه ظل مرتبطا ببيرو برباط فكري وعاطفي وثيق. وقد عكست مقالاته الثرية التي نشرت في صحيفة "إل باييس" الإسبانية آراءه الجريئة في قضايا الحرية والديمقراطية ونقده اللاذع للقومية المتطرفة.

في عام ٢٠١٠، استحق يوسا عن جدارة جائزة نوبل للآداب، تقديرا لـ"تصويره هياكل السلطة ورؤيته النافذة لمقاومة الفرد وثورته وهزيمته"، على ما ورد في بيان الأكاديمية السويدية. هذا التكريم الرفيع جاء بمثابة تتويج لمسيرة إبداعية امتدت لأكثر من خمسة عقود زاخرة، أنتج خلالها أكثر من ثلاثين عملا أدبيا متنوعا بين روايات ومسرحيات ومقالات ودراسات نقدية عميقة. وقد عززت جوائز أخرى مرموقة، مثل جائزة "ثيربانتس" (١٩٩٤) وجائزة "رومولو غاليغوس" (١٩٦٧)، مكانته كأحد أعظم كتّاب اللغة الإسبانية على مر العصور.

لقد ألهم أسلوبه التجريبي الفريد، بتعدد الأصوات وتداخل الأزمنة، جيلا من الكتّاب اللاتينيين لاستكشاف آفاق جديدة في تقنيات السرد المعقدة، كما تجلى بوضوح في روايته "حرب نهاية العالم" (١٩٨١)، التي وسعت آفاق الرواية التاريخية. وامتد تأثيره العميق ليشمل شخصية رافائيل تروخيو في جمهورية الدومينيكان، وبرع في تصوير التأثير المدمر للسلطة المطلقة على الفرد والمجتمع برمته.

لم تقتصر عبقرية يوسا على موهبته الفذة في سرد القصص الأسرة، بل تجلت أيضا في أسلوبه التجريبي الفريد. فقد وظف تقنيات سردية معقدة بمهارة فائقة، كالقفز برشاقة بين أصوات الرواة المتعددين، والتداخل الزمني الذي يكسر أفق التتابعية الخطية، والحوارات الممتدة التي تستنطق بواطن الشخصيات. هذه التقنيات جعلت من قراءة أعماله تجربة فكرية ممتعة بوقت مدارك القارئ، كما أن اهتمامه العميق بالجسد والإيروس، كما يتجلى في روايته "مديح الخالة" (١٩٨٨)، أضاف بعدا إنسانيا بالغ العمق لكتاباته، حيث تناول موضوعي الحب والرغبة بفلسفة رفيعة المستوى.

من اليسار إلى مشارف الليبرالية

لم يكن دور يوسا محصورا في محراب الكتابة الأدبية وحدها، بل كان أيضا شخصية سياسية بارزة تركت بصمتها في المشهد العام. ففي مواكبر شبابه، تأثر بالأفكار الاشتراكية المتحمسة وأبدى دعمه للثورة الكوبية في بداياتها المشرقة. لكن مع تعاقب الأيام وتقلب الأحداث، أعاد تقييم مواقفه الفكرية بعين ناقدة. وفي ثمانينات القرن الماضي، تبنى مبادئ الليبرالية الاقتصادية والسياسية، مؤمنا بحرية الفرد وسلطة السوق كأدوات فاعلة للتقدم والازدهار.

يوسا في بغداد: "هذا ليس حسناً يا سيدي! "

نـــدى حـطـيـط

كتب الروائي الراحل ماريو فارغاس يوسا (١٩٣٦-٢٠٢٥) وحائز نوبل للآداب ٢٠١٠ بغزارة لافتة عبر مختلف الأنواع الأدبية، بما في ذلك النقد الأدبي. حلّقت أعماله الروائيّة في فضاءات السياسة والتاريخ والكوميديا، لكنه كان أيضاً سياسياً بارزاً، وأحد أهم كُتّاب المقالات في أميركا اللاتينية باللغة الإسبانية، وتُرجمت أعماله إلى كثير من لغات العالم. إلا أنّه في كتاب نادر قصير نُشر بالإسبانيّة يبتعد للحظات عن العوالم الخياليّة التي جلبت له الشهرة، ويخطو إلى تضاريس التحقيقات الصحافية، فيسجّل لقرائه -في صحيفة "إلباييس" الإسبانيّة حينها- انطباعاته اليوميّة من زيارة قام بها إلى العراق في يونيو (حزيران) ٢٠٠٣ بعد أقل من شهرين من الغزو الذي قادته الولايات المتحدة للإطاحة بنظام حكم صدام حسين. والنتيجة كانت وثيقة ثمينة لشاهد ذي حساسيّة استثنائيّة لا يتوانى عن أن يكون مشاراً للجدل، ونظرة إنسانيّة عميقة في حياة شعب كان لا يزال يعيش لحظة الصدمة وعسف الاحتلال.

لا تتأتى قيمة "يوميّات العراق - ٢٠٠٣" من شمولية التحليل السياسيّ للحدث الصاعق، فتلك ليست غاية نصوصه إطلاقاً، بل في سطوع الملاحظة الشخصيّة لذهن روائيٍّ امتلك قدرة فريدة على التقاط تفاصيل عن الحياة والناس قد لا تقبض عليها العين العادية.

منذ البداية، لا يضع يوسا نفسه في موقع الخبير في سياسات الشرق الأوسط، ولكن كمراقب يسعى إلى تسجيل تأثير الديكتاتورية والحرب على الحياة اليومية للناس العاديين. ويمنح هذا التواضعُ في المنهج السردَ أصالة تقاوم نبرة الخطابة وصيغة التنظير الشائعة في المقالات السياسية. وبينما يسير في شوارع بغداد، والنجف، والسليمانيّة، ويتحدث إلى سائقي سيارات الأجرة، والجنود، وأصحاب المتاجر، ورجال الدين، ويزور أنقاض المباني الحكومية المدمرة ومواقع السجون، يستمع يوسا أكثر مما يقول، على الرغم من أن آراءه تظهر جليّةً في الخلفيّة.

تحمل نصوص اليوميّات -التي تضم مجموعة من الصور التقطتها مورغانا ابنة يوسا- توتراً أساسيًا حول موقف الروائي الشهير من التدخل العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة في العراق. إذ انتقل مبكراً في حياته الأدبيّة من تأييد الحكومة الثورية في كوبا بقيادة فيدل كاسترو، منذ بداية السبعينات، إلى الليبرالية اليمينية ومربع العداء لليسار، وأصبح أحد أعلى الأصوات المنتقدة للاستبداد والديكتاتوريات، ولذلك كان يرى -قبل رحلته إلى بغداد- في إزاحة صدام حسين تحرراً ضرورياً للشعب العراقيّ. ومع ذلك، فإنّه بعدما لمس الأمور على الأرض، وشاهدها رأي العين، يخفف من غلواء تأييده للغزو، ويُظهر وعياً عميقاً بالمخاطر والآلام والحسابات الخاطئة التي انطوى عليها. وهنا لم تعد الحكاية سجل انتصار بقدر ما هي سرد متضارب يعطي شرعيّة للمشاعر المناهضة للحرب، ويوثق الفوضى، وانعدام الأمن، وفقدان الخدمات، وكذلك الخسائر الثقافية التي أعقبت دخول قوات التحالف إلى بغداد، بما في ذلك نهب المتحف الوطني العراقي، ذلك الحدث الرمز بالنسبة إلى يوسا، والذي عنده يكشف عن الإفلاس الأخلاقي للغزو، ومع ذلك فهو لا يُغفل في تأملاته التكلفة الباهظة إنسانياً للديكتاتورية، والآمال الهشة لدى كثيرين بالديمقراطيّة الموعودة.

استمع يوسا على هامش جولاته عبر العراق لأشخاص ممن سُجنوا أو تعرضوا للتعذيب أو أسكتوا بمحض القوة خلال حكم النظام البعثي، وزار سجن أبو غريب (الذي كان آنذاك رمزاً لقسوة صدام حسين، وقبل أن يدخل التاريخ لاحقاً بوصفه موقعاً لأبشع الانتهاكات الأميركيّة بحق المعتقلين العراقيين)، وسجل معاناة المعارضين برصانة دون زخارف أو تلوين.

يوسا، بالطبع وقبل كل شيء، روائي، وحساسيته الأدبيّة تُحرّك السرد في "يوميات العراق"، فحتى في خضمّ التعليقات السياسية، تجده يستحضر المشاهد بعين راوي الحكايات؛ فيلتقط إيماءات امرأة خائفة عند نقطة تفتيش، وسخرية الأطفال الذين يلعبون ببراءة وسط الأنقاض، وذلك الصمت الحزين في المقابلات مع الناجين. تُضفي هذه اللحظات على اليوميات عمقاً تفتقر إليه الصحافة السيّارة في غالب الأحيان، وتكشف عن نظرته إلى الأدب بوصفه طريقة لرؤية العالم -ليس فقط كمرآة عاكسة، ولكن كأداة لتفسيره.

ومع ذلك، فإن اليوميات لا تخلو من بعض نقاط الضعف؛ إذ يحد إيجازها من نطاق التحليل للحظة انتقال جدّ معقدة، وقد يرى بعض القراء -لا سيّما من العارفين بالعراق وتاريخه- أن حججه إما مؤقتة للغاية وإما استفزازية للغاية. ولا شكّ أن منتقدي الحرب اليوم سيجدون في اعتقاد يوسا -في ذلك الحين- أن الغزو مهما كان معيباً فإنه كان له ما يبرره أخلاقياً، مادةً للسخريّة التاريخيّة. علاوة على ذلك، فإنّه لا يتعامل بعمق مع التاريخ الطويل والمعقد للتدخل الغربي في الشرق الأوسط، ولا يوفر مساحة كبيرة للأصوات التي تنتقد الاحتلال من داخل العراق. إنها، بعد كل شيء، مجرد انطباعات شخصية لزائر للمكان، وليست كتاباً في التحليل الجيوسياسي الشامل. ولكن ذلك ربّما هو تحديداً ما يمنح اليوميات قيمتها اليوم. إذ من خلال تجنبه تقديم نفسه على أنه خبير، ومن خلال تناقضاته الظاهرة، يقبض يوسا على ملمح أساسيّ في لحظة ما بعد الغزو: عدم اليقين، وتهافت منطق الغزو، وأرضيته الأخلاقية المتقلبة. إنه، كأجنبي، يكتب في محاولة لفهم مكان في حالة تغير عنيف، فيبحث عن الإنسانيّ وراء العناوين الرئيسية، ويقاوم النظرة الاستشراقية المبسترة، وشيطنة العراق، أو سذاجة إضفاء الطابع الرومانسي عليه، ليصل إلى خلاصة وصل إليها عراقي -تحدث إليه يوسا بعد زيارة منزله الذي اقتحمه جنود أميركيون في اليوم السابق: "هذا ليس حسناً يا سيدي! ".

لا تنتهي اليوميات بخاتمة، ولكن بتساؤلات؛ فيوسا لا يعلن نجاح الغزو، ولا ينتبأ بمستقبل العراق، لكنّه بدلا من ذلك، يعترف بحدود فهمه، وتعقيد اللحظة، فيكتب: "لا أحد يعرف ما سيحدث تالياً، لكن ربما، في النهاية، سيتولد شيء حسن من وافر الألم". إنها ملاحظة متحفظة، مسكونة بحزن عميق، ولا تبعث على كثير من الأمل، تلخّص النفَسَ العام لليوميات، وتكشف عن تموضع لافت لليبرالية يوسا السياسي: بعيداً عن مربع إدانة الغزو بوصفه عملاً إمبريالياً محضاً، ولكنه في الوقت نفسه لا يشتري بضاعة المحافظين الجدد عن الاستبداد والديمقراطيّة على عواهنها، ولا يتورع عن اعتبار وجود الجيش الأميركي مصدراً لمشكلات لا حل لها، مما يُكسب منظوره تميزاً.

ومع رحيل مؤلفها بعد أكثر من عقدين من الزمن على زيارته للعراق، لا تزال "يوميات" يوسا قراءة ذات صلة وحيويّة، ليس لما تضمّنه من إجابات، بقدر ما تضيء على الارتباك الأخلاقي للشعارات التي تُعرِّيها الوقائع الماديّة التي يحملها تدفق نهر التاريخ الهادر. إن "اليوميات" وعد بثراء النقاء الأدب بالصحافة، وكيف أنه في بعض الأحيان، يمكن لصوت روائي يتجول في مدينة محطمة أن يكشف عن أكثر من ألف تقرير لمراكز الأبحاث.

مقتطف من الكتاب: كان الجنود الأميركيون خائفين كأهل بغداد.

" إن السلطة الوحيدة ممثّلة الآن في الدبابات والسيارات المدرعة والشاحنات وسيارات الجيب، والدوريات الراجلة للجنود الأميركيين الذين يعبرون الشوارع ويعيدون عبورها في كل مكان، مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة، فيما تهتز المباني من هدير مركباتهم الحربية. الجنود يبدون، عند نظرة فاحصة، عاجزين وخائفين مثل مواطني بغداد أنفسهم.

منذ وصولي، ازدادت الهجمات ضدهم بشكل منهجي، وقد قتل بالفعل ثلاثون جندياً منذ وصولي، وأصيب نحو ٣٠٠، ولذلك ليس مستغرباً أن يظهروا متردين وفي حالة معنوية سيئة، وأصابعهم دائماً على الزناد بينما هم يقومون بدورياتهم في شوارع مليئة بأشخاص لا يستطيعون التواصل معهم، وسط حرارة جهنمية، والتي لا شك بالنسبة إليهم، مرتدين خوذات وسترات واقية من الرصاص وغيرها من أدوات الحرب، أسوأ مما هي للسكان المحليين العاديين. لقد حاولت في أربع مناسبات مختلفة التحدث إليهم -وكثير منهم مراهقون لم تنمُ لحاهم بعد- لكنني لم أتلقَ سوى ردودٍ موجزة للغاية. لقد كانوا جميعاً خائفين في العراق، ومُقل عيونهم تتحرك باستمرار، مثل جنادب مذعورة".

٠ عن الشرق الاوسط

"يوسا" والذائقة العربية

إيـــهـــاب الـمـلاح

لماذا من بين جوقة كتّاب أمريكا اللاتينية، وكلهم كبار، وكلهم فى الصف الأول من كتاب الأدب والرواية بالأخص، حظى ماريو بارغاس يوسا (١٩٣٦-٢٠٢٥) بهذه المكانة الرفيعة وهذه الشهرة الواسعة (بعد صديقه اللدود الكاتب الكولومبى الأشهر جارثيا ماركيز) فى العالم العربى؟

شغلنى هذا السؤال كثيرًا، وحاولت أن أقترب من طرح إجابة مقنعة ومنطقية على الأقل فى حدود تجربة قراءة "يوسا" ضمن أعمال جوقة كتاب رواية الواقعية السحرية التى ملأت الدنيا وشغلت الناس؛ منذ النصف الثانى من القرن العشرين وحتى وقتنا هذا (وإن انحسرت هذه الموجة وهذا الاهتمام فى العقدين الأخيرين بشكل ملحوظ).

أفترض أن يوسا من بين كل كتاب أمريكا اللاتينية كان الأقرب إلى ذائقة القارئ العربى، من حيث التركيز على عنصرين أراهما الأهم بين العناصر الأخرى فى أدب يوسا وأدب كتاب الواقعية السحرية عمومًا؛ وهما "الإمتاع" والقدرة الفذة على الاستحواذ على انتباه القارئ وإشعال فضوله وتحفيز شغفه القرائى وربما يعود هذا العنصر بجذوره إلى استلهام يوسا لروح ألف ليلة وليلة واتصاله الأكيد بروائع القصص فى التراث العربى.

أما العنصر الثانى؛ فهو تماثل الهم الاجتماعى والسياسى، والاقتراب المدهش بين ظروف العالم العربى وتحولاته وتطوره منذ نهايات القرن الثامن عشر، وحتى نهاية القرن العشرين، وبين ظروف دول أمريكا اللاتينية، وتحولاتها الاقتصادية والسياسية وسياقها الاجتماعى والثقافى.

(2)

لعل هذه الخاصية أو هذه السمة -فيما أفترض- التى جعلت يوسا ومن يشبهه قريبا جدًا من الذائقة العربية، وجعلت أعماله فى الصدارة من الإقبال عليها والاستجابة لها؛ هى التى رصدها المرحوم حامد أبو أحمد (أحد الذين اهتموا بأدب يوسا ورواياته وترجم بعضا منها)؛ فى دراسته عن "أدب الواقع والتجريب عند يوسا"؛ فيقول: ظهر ماريو بارجاس يوسا، بموهبته الفذة، فى بلد، مثل بلادنا، يشغل فيه الأدب جانبا هامشيا، ويكاد يكون مجرد تزجية لوقت الفراغ. ويعود ذلك لأسباب كثيرة، من بينها الأزمات الاقتصادية الطاحنة، والحكومات الدكتاتورية، والفروق الطبقية الهائلة، والتخلف، والمظالم الاجتماعية، وغير ذلك من أسباب تحول بين الأدب وبين أن يصبح عاملاً مهما من عوامل التوعية الجماهيرية.

ومن خبرة ماريو بارغاس يوسا بالحياة فى أمريكا اللاتينية، وتمرسه فيها، رأى كيف يكون الظلم فى هذه البلاد هو القانون، والجهالة هى الفردوس ففى أى مكان من هذه القارة المترامية الأطراف نجد الاستغلال، والفروق الطبقية الشنيعة، والبؤس، والتخلف الاقتصادى والثقافى والتردى الأخلاقى.

ويرى ماريو بارغاس يوسا أن بلاد العالم الثالث؛ بما فيها أمريكا اللاتينية، تعانى من حالة فساد جماعى، فالكل مدانون، والكل مشتركون فى هذا الفساد إما بالفعل وإما بالتواطؤ، وإما بالصمت والمبالاة. فالواقع إذن فى غاية السوء، لكن الحياة يجب أن تؤول إلى الأحسن والأفضل، والكاتب والأدب والروائى بالأخص مدعو من خلال إبداعه الروائى وسرده القصصى، وباستخدام كل الوسائل الجمالية من توظيف تقنيات الكتابة؛ التداعى والمشاهد المتخيلة، والمجازات، والرؤى والكوابيس والأحلام.. إلخ، لتحفيز الوعى بهذا الواقع، وإدراك مشكلاته وآثاره، ومن ثم السعى إلى معالجتها وإصلاحها، والانتقال إلى الأفضل.

(3)

ولمواجهة هذا الواقع الأليم "أدبيا" و"جماليا"؛ يستشهد حامد أبو أحمد بمقال لـ "يوسا" نشر عام ١٩٦٧ بمجلة "العالم الجديد" تحت عنوان "الأدب نار"، يقول يوسا: "فأمام هذا الواقع يجد الكاتب أنه مطالب بشحذ أسلحته الدلالية والجمالية، حتى ولو اضطر للدخول فى معركة غير متكافئة ضد طواحين الهواء، وخرج منها مدحورًا كاسر البال، أو تعرض لحرق كتبه فى احتفال رسمى!".

يستنتج حامد أبو أحمد أن ماريو بارغاس يوسا، وكبار كتاب أمريكا اللاتينية، فى النصف الثانى من القرن العشرين، قد رأوا أنه لا يمكن نقل الواقع على الورق بطريقة سطحية تسجيلية، وإنما لا بد من تحويله إلى مادة شعرية، كانوا جميعا على قناعة بأن "أجود القصص هو ما يكون تعبيرًا شعريا عن الواقع".

ولعل هذا هو الفرق الكبير بين "الواقعية القديمة" و"الواقعية الجديدة (السحرية)". ولهذا يرى يوسا أن التجارب التى عاشها الكاتب واستوعبها يجب أن تدخل بوتقة الأسلوب، كى تحمل أقنعة جديدة وتصهر وتتحول، وتخرج بالتالى على نحو آخر يمكن وصفه بالشاعرية. وإذا لم يتم التعامل على هذا النحو مع الواقع، فإن هذه التجارب يكون محكومًا عليها بالتجمد أو النزق، وبذلك تفقد خاصيتها الحقيقية.

وهذا الأمر يتسق تمامًا مع مفهوم يوسا للرواية التى يرى أنها ذلك الكائن الاحتوائى القادر على استيعاب كل الأجناس الأدبية الأخرى، فكما أن السينما هى الفن السابع للفنون، الرواية كذلك فى الأدب، تحتوى الأشواق الشعرية، الحوارات والتقريرية، القصة، اللغة، حتى الفلسفات الكبرى أصبحت توجد ضمن سياق روائى أكبر، فى الرواية تستطيع أن تعبّر عن رؤيتك للعالم، عن الهموم الكبرى، عن المسائل الوجودية المهمة، الزمن، الموت، الحياة. "أنا مع أهمية هذا التعبير الإنسانى الخاص والشامل فى نفسى الآن"، هكذا يختتم يوسا مقاله بخير تعبير يلخص تجربته الإنسانية والإبداعية؛ وهى التى ستبقى بعده طويلاً.

• عن صحيفة الشروق المصرية

ماريو فارغاس يوسا: أمنحك صمتي

ترجمة: ثريا جواد

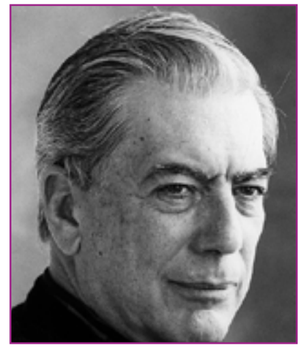

على مدار مسيرة مهنيّة امتدت لأكثر من ٥٠ عاما توفي الروائي البيروفي ماريو فارغاس يوسا، عملاق أدب أميركا اللاتينيّة، عن عمر يناهز ٨٩ عامًا الحائز جائزة نوبل في العام ٢٠١٠ وأحد رواد الازدهار العالمي لأدب أميركا اللاتينيّة وترشح سابقا للرئاسة في بيرو.

أعلن عن وفاته يوم الأحد الفائت في بيان وقعه أبناؤه، "ألفارو وغونزالو ومورغانا فارغاس يوسا وكتبوا: "توفي فارغاس يوسا بسلام في ليما.. محاطا بأفراد أسرته".

"سيُحزن رحيله أقاربه وأصدقاءه وقراءه حول العالم، لكننا نأمل أنّ يجدوا العزاء، كما نجده نحن، في أنه عاش حياة طويلة حافلة بالمغامرات والعطاء، وأنّ يترك وراءه أعمالاً خالدة".

جسّد فارغاس يوسا قضايا السلطة والفساد في سلسلة من الروايات، منها "زمن البطل" و"حوار في الكاتدرائيّة" و"عيد التيس" عاش فارغاس يوسا حياة ملونة مثل رواياته، كما خاض محاولته الفاشلة لرئاسة البيرو، وكان له عداءٌ طويلٌ الأمد مع غابرييل غارسيا ماركيز، وفاز بجائزة نوبل في الأدب في العام ٢٠١٠.

أكدت مسرحياته وقصصه القصيرة وروايته، بما في ذلك "حوار في الكاتدرائيّة" و"العمة جوليا وكاتب السيناريو" و"حرب نهاية العالم"، شهرته الأدبيّة ومع ازدياد شهرته انخرط فارغاس يوسا في السياسة بشكل متزايدٍ مبتعدًا عن الماركسيّة التي اتسم بها في شبابه، قدّم برنامجًا حواريًا على التلفزيون البيروفي وفي العام ١٩٨٤، رفض عرضًا من الرئيس المحافظ فرناندو بيلاوندي تيري ليصبح رئيسًا للوزراء.

نشرت روايته الأولى "زمن البطل"، في إسبانيا في العام ١٩٦٣ ولكن هذه القصة عن جريمة قتل في أكاديميّة ليونسيو برادو العسكريّة، حيث قضى فارغاس يوسا عامين في سن المراهقة والتستر اللاحق عليها اعتبرت صادمة للغاية في بيرو لدرجة أنه قبل إنّ ألف نسخة من القصة أحرقت في ساحة العرض بالمدرسة.

وجد فارغاس يوسا نفسه في قلب طفرة أدب أميركا اللاتينيّة إلى جانب كتّاب مثل خوليو كورتاثار وكارلوس فوينتس وغارسيا ماركيز وحصل فارغاس يوسا على الجنسيّة الإسبانيّة في العام ١٩٩٣ مع استمرار سيل المسرحيات والمقالات والروايات.

في العام ١٩٨٧، استقطب فارغاس يوسا حشدًا من ١٢٠ ألف شخص إلى تجمع في ليما احتجاجًا على خطط تأميم النظام المالي البيروفي، وأطلق حملة رئاسيّة بعد ثلاث سنوات وبعد مكالمات هاتفيّة مسيئة وتهديدات بالقتل، هُزم في الجولة الثانية أمام ألبرتو فوجيموري وغادر البلاد في غضون ساعات.

على الرغم من الشهرة العالميّة للكاتب، إلا أنه واصل إفساح المجال للكتابة الروائيّة، حيث صدرت له أربع روايات بعد فوزه بجائزة نوبل في العام ٢٠٢٣، أعلن أنّ روايته الأحدث "أمنحك صمتي" ستكون آخر رواياته وصرح لصحيفة "لا فانجارديا": "مع أنني متفائل لا أعتقد أنني سأعيش طويلاً بما يكفي للعمل على رواية جديدة لا سيما أنّ كتابة واحدة تستغرق مني ثلاث أو أربع سنوات لكنني لن أتوقف عن العمل أبدًا وأمل أنّ أمتلك القوة للاستمرار حتى النهاية".

أوضح فارغاس يوسا لصحيفة الغارديان في العام ٢٠١٢: "تعلمتُ من تجاربي السياسيّة أنني كاتب، وليس سياسيًا" وأحد أسباب عيشي هذه الحياة هو رغبتي في خوض مغامرات لكنّ أفضل مغامراتي كانت أدبيّة أكثر منها سياسيّة.

وبين أنّ حصوله على جائزة نوبل كانت "قصة خياليّة لمدة أسبوع"، لكنها "كابوسٌ لمدة عام" إذ حرمه الاهتمام العام من الكتابة بالكاد: "لا يمكنك تخيل الضغط لإجراء المقابلات والذهاب إلى معارض الكتب".

ولد فارغاس في أريكيبا في العام ١٩٣٦، وبدأ العمل كمراسل جرائم وهو في الخامسة عشرة من عمره بعد أربع سنوات هرب مع عمته جوليا أوركيدي البالغة من العمر ٣٢ عامًا وهي رحيل وصفه والده بأنه "فعلٌ رجولي" كانت رحلته إلى باريس في العام ١٩٥٨ بداية لستة عشر عامًا قضاها في الخارج، حيث عاش في مدريد وبرشلونة ولندن، فضلاً عن العاصمة الفرنسيّة لكنّ أثناء عمله كصحفي ومذيع ومعلم بدأ فارغاس يوسا يعود إلى وطنه من خلال الأدب.

ميراثُ (يوسا) أكبر من رواية وسياسة

لطفية الدليمي

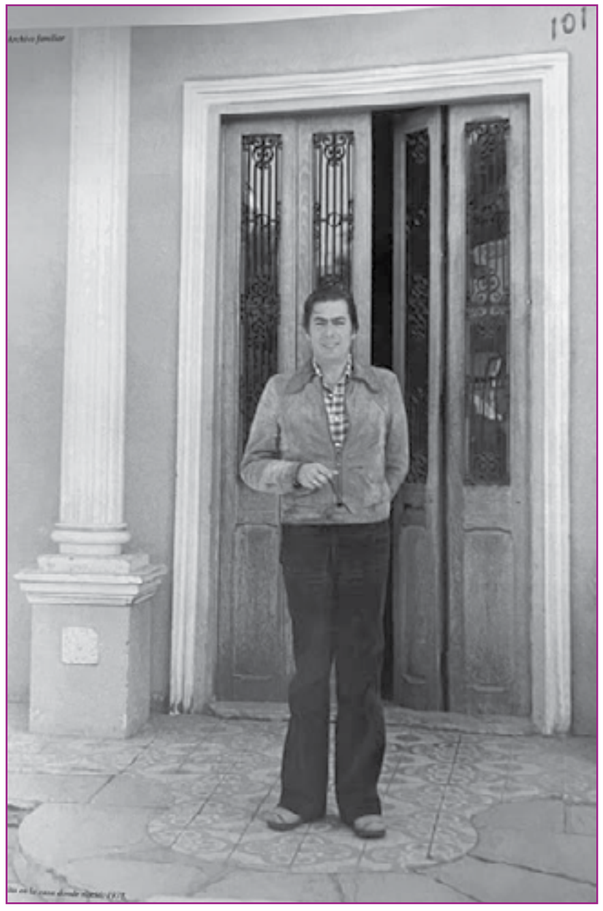

لا أحبُّ المراثي والمقالات التأبينية. كلّما سمعتُ بخبر رحيل شخصية ذات مثابة عالية في أيّ نشاط معرفي أو إبداعي كان هذا الرحيل إيذاناً بمعاودة التفكّر المديد في هذه الثنائية الغريبة للحياة: يرحل المرء بعد رحلة حياة شاقة قضاها في إكتساب معرفة وألوان شتى من الخبرات التي لا تفتأ تتعاظم يوماً بعد آخر. ما الذي ستُضيفه المرثية؟ هل ستعدّل بعض حتمية هذه الثنائية الشرطية؟ لن تفعل بالتأكيد. المراثي والمقالات التأبينية أراها مساهمة -غير قصصية وربّما- في تأكيد سطوة الموت والإذعان لحقيقة الرحيل الأبدي والإيقان بأنّنا إنما نقدّمُ للراحل جزءاً من دَيْن إفتراضي علينا تأخّرنا فيه وهو حيٌّ بعدُ، ولم يكن رحيله سوى تذكرة لنا بوجوب تسديد ذلك الدَّيْن. أظنُّ لو كانت للذكاء الإصطناعي منْ حسنة أو فضيلة مشهودة فستكون مقدرتَهُ المبشَّر بها في حفظه للذاكرة الرقمية كخطوة أولى ضرورية نحو تحقيق (الخلود الرقمي Digital Immortality). الأفضل من تدبيج العزاءات والمراثي والتأبينات هو الإستمرار بالكتابة عن الراحل كما كنّا نفعل عندما كان حياً. أظنّنا بهذا الشاكلة نبقي ذكره حياً ونكسرُ شوكة الموت المتجبّرة.

ماريو فارغاس يوسا الذي غادَرَنا مؤخّراً سيكون ميدان إختباري الأوّل. سأكتب عن مواريثه (أو بعض مواريثه) المسكوت عنها أو غير الشائعة على أوسع النطاقات التي يستحقّها. معروف عنهُ أنّه روائي حارّ جائزة نوبل عام ٢٠١٠، فضلاً عن إهتماماته السياسية. سأقول ابتداءً أنّني أعتقدُ بأنّ كثيرين من روائيي أمريكا اللاتينية يتقدّمون على يوسا في الصنعة الروائية، ولو أردتُ تعداد بعض أسماء من هؤلاء لقلتُ: فوينتس وكورتاثار وبارامو وماركيز. يتداخل السياسي مع الروائي في عالم يوسا الروائي تداخلاً يبدو قسرياً في معظم الأحيان، ولعلّ هذا ما يفسّرُ لنا إنغماسه في السياسة وترشّحه للرئاسة في سابقة نادرة تكرّرت مرّة أو مرّتين قبله. أظنُّ أنّ يوسا إنتبه لهذه التفصيلة فعمل في روايته الأخيرة على فصل السياسي عن التخييلي في أعماله الروائية.

فضائل يوسا ومحاسنُهُ وإبداعاته الأعظم تتجلّى خارج نطاق الرواية والسياسة، وتتجلى على وجه التخصيص في ميادين ثلاثة. الميدان الأوّل هو كتاباته الفكرية سواءً كانت في حقل التنظير الروائي أو الإنشغالات الفكرية غير الروائية. أبدع يوسا كثيرا في مثل هذه الكتابات، وأظنُّ أنّ قراءة كتب يوسا: (الكاتبُ وعالمه) و(رسائل إلى روائي شاب) تقدّمُ مصاديق مؤكدة لما أرى. كذلك تفعل حوارات يوسا. الإكتفاءُ بروايات يوسا من غير إطلالة جادّة على حواراته وكتبه غير الروائية إنّما هو تبخيسٌ لإستحقاق الرجل وإبداعه وتفويتٌ لفرصة الإطلاع على روائي لا يكتفي بكتابة الروايات. للأسف تميلُ دور النشر إلى تاثاقف روايات جامليّ جوائز نوبل الأدبية وتسرعُ في ترجمتها؛ لكنّها في المقابل تتناسى إنتاجاتهم غير الروائية. أشيرُ في هذا الشأن بالتحديد إلى كتاب رائع كتبه يوسا قبل أكثر من عقد بقليل واختار له عنوان (نداءُ القبيلة The Call of the Tribe) وهو مما لم يُترجمْ حتى اليوم، ولا أظنني سأراه مترجما في قابل الأيّام. هذا الكتاب رائع، ويمثل سابقة لدى الروائيين عندما يكتبُ روائي سيرة ذاتية فكرية Intellectual Autobiography لـه أوضحَ فيها كيف سارت أطوار تحوّله من الفكر الوجودي (السارتري) والاشتراكي (بكافة ألوانه) نحو الفكر الليبرالي بعد قراءة جادة ومكثفة في أعمال سبعة أساطين للفكر الليبرالي العالمي. يوسا في هذا الكتاب ليس له نسخة أخرى يمكن قراءتها في كتاب آخر أو أطروحاتهم الشخصية عن دوافع كتابتهم للرواية، وقد تلوّنت كتاباتهم برؤاهم الخاصة وكيفية عيشهم للحياة التي يرونها تستحقّ العيش. من البديهي والطبيعي للغاية أن تتباين طرائقنا ومسوّغاتنا لتعاطي الأدب قراءة وكتابة وعلى مستوى الحرفة أو الهواية. عندما نقرأ أطروحة يوسا قد نتّفق معه في حيثيات ونتخالف معه في أخرى؛ لكنّي أتمنّى أن يقرأها الجميع. سنقرأ في أطروحة يوسا عبارات مشرقة على الشاكلة التالية: "تأتي الأعمال الأدبية في البداية كأشباح بلا شكل أثناء لحظة حميمية في وعي الكاتب، ويسقط العمل في تلك اللحظة بقوة مشتركة بين كل من وعي الكاتب، وإحساسه بالعالم من حوله، ومشاعره في الوقت ذاته. هذه الأمور ذاتها هي التي يتعامل معها الشاعر أو السارد في صراعه مع الكلمات لينتج -بشكل تدريجي- شكل النص، إيقاعه، حركته وحياته. حياة مصطنعة، وللتأكيد، هي حياة مُتخيلة، صُنعتْ من اللغة، وحتى الآن يسعى الرجال والنساء لتلك الحياة، بعضهم بشكل متكرر، والبعض الآخر بشكل متقطع، وذلك لأنهم يرون أن الحياة الواقعية لا تروق لهم، وغير قادرة على تقديم ما يريدون. لا ينشأ الأدب من خلال عمل فرد واحد؛ بل يوجد حينما يتبناه الآخرون ويصبح جزءاً من الحياة الإجتماعية عندما يتحول، وبفضل القراءة، إلى تجربة مشتركة".

يوسا غير الروائي أكثر ثراءً من يوسا الروائي والسياسي، وليسوا قليلين هؤلاء الذين على شاكلته من الروائيين والمشتغلين بالأدب. أفضل ما نفعله لهؤلاء أن لا نجعل إبداعاتهم غير الروائية تُدفنُ تحت ثقل إبداعاتهم الروائية، ولو فعلنا هذا قبل رحيلهم لكان أفضل بكثير ممّا لو فعلناه وهم راحلون.

• عن الغارديان

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

يوسا.. في الفردوس الأخرى

محمد الشحري

سأستعير هذه العبارة المستوحاة من مقال الكاتب والروائي الراحل ماريو بارغاس يوسا (١٩٣٦-٢٠٢٥) الذي رحل عنا في العاصمة البيروفية ليما. ففي مقاله المنشور في صحيفة الشرق الأوسط في يناير الماضي عنون يوسا مقاله "خورخي أمادو في الجنة" قائلا: "يا لها من بلاد رائعة تضاهي شهرة الأدباء فيها شهرة نجوم كرة القدم! لكن سرعان ما تنبّهت أنها ليست شهرة عموم الأدباء، بل شهرة خورخي أمادو (١٩١٢-٢٠٠١)". وعلى ذلك ننحت ليوسا العنوان أعلاه المستوحى من روايته الفردوس على الناصية الأخرى، التي خصصها للمرأة المناضلة فلورا تريسان وحفيدها بول غوغان.

أغلق رحيل يوسا سجل الواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية التي يعد أحد صُناعها مع غريمه وصديقه اللدود الكولومبي جابريال ماركيز (١٩٢٧-٢٠١٤) والتشيلي خوسيه دونوسو (١٩٢٤-١٩٩٦) والمكسيكي خوان رولفو (١٩١٧-١٩٨٦). يوسا ذاته الذي لكم صديقه ماركيز لكمة ستبقى أسبابها مجهولة إلى الأبد بعد رحيل صاحبيها ماركيز ويوسا الذي ذكر أن فكرة رواية (الجميلات النائمات) للروائي الياباني ياسوناري كاواباتا (١٨٩٩-١٩٧٢)، التي كتب مقدمتها ماركيز وتمنى لو كان كاتبها مأخوذة من قصة أبيشج الشونمية في الكتاب المقدس لفتاة تحضن الملك داود لكي يشعر بالدفء. وهذا ما أورده الكاتب والروائي عزت القمحاوي في كتابه (الطاهي يقتل والكاتب ينتحر).

أكاد أن أقول بأنني قرأت جل أعمال يوسا المترجمة إلى العربية، بدءا برواية (بنتاليون والزائرات) وإلى (شيطنات الطفلة الخبيثة)، التي أنهيت قرأتها مؤخرا. اقتنيت ثلاثة أعمال له حين لمحت رواياته في مكتبة النوري بدمشق سنة ٢٠١٠ في العام الذي نال فيه جائزة نوبل للآداب. ورغم كل مباهج الحياة في دمشق حينها. فإنها لم تأخذني من رواية يوسا التي اكتشفت فيها لذة السرد وغواية سير الشخصيات وصيروراتها. مع يوسا نكتشف قدرة المترجم الفلسطيني الراحل صالح علماني (١٩٤٩-٢٠١٩). أنهيت قراءة رواية بنتاليون في دمشق، وبقيت لدي روايتا (حفلة التيس) و(البطل المتكتم). لاحقا أصبحتُ اقتني روايات يوسا واقرأها، مرة أخذت من مطار الكويت روايته (مديح الخالة) وأنهيتها في يومين. ومرة وجدت روايته (البيت الأخضر) مترجمة إلى اللغة الألمانية (das grune Haus) على رصيف شارع (Augartenstrasse) بمدينة مانهايم الألمانية، ولم آخذها. وحين أخبرت زميلا بذلك قال لي إنها متروكة لمن يود أخذها، إذ جرت العادة في ألمانيا أن تُترك على الأرصفة الحاجيات المستغنى عنها. حينها خرجت من حصة اللغة واتجهت مباشرة إلى الرصيف فوجدت الرواية كما هي على الرصيف وأخذتها، ومع بداية جائحة كورونا تركت الرواية في شقتي في ألمانيا مع عشرات الكتب التي ستأخذ طريقها إلى الرصيف ليلتقطها أحد المارة. عودة إلى "البيت الأخضر" فإنها الرواية الوحيدة ليوسا التي لم أتمكن من إنهاء قرأتها إلى الآن. ويعود ذلك لمترجم النص المترجم السوري رفعت عطفة (١٩٤٧-٢٠٢٣) الذي فقدتُ في ترجمته متعة التشويق المعهودة في روايات يوسا. فالقارئ المطلع على أعمال يوسا يتعرف على طريقته السردية في بناء الرواية وإيجاد الترابط بين الأحداث التي تتزامن أحيانا، باستثناء روايته (حلم السلتي) المستوحاة من سيرة المناضل الإيرلندي الثوري روجر كيسمنت (١٨٦٤-١٩١٦) الحاصل على عدة أوسمة ملكية بريطانية قبل أن تعدمه المملكة المتحدة بتهمة الخيانة.

أما روايته (البطل المتكتم)، فلي معها حكاية أخرى وفي ألمانيا أيضا، فقد قرأتها في الحافلة المتجهة من مدينة مانهايم إلى مدينة أوغسبورغ. وكذلك فعلت في الرجوع وحين نزلت من الحافلة لم أستطع الانتظار حتى وصولي إلى البيت وأكملها، إذ جلست في محطة الحافلات وأنهيت قرأتها. اكتشف لاحقا أن الرواية تتقاطع أحداثها مع سيرة الكاتب الحقيقية حينما انفصل عن زوجته وقريبته باتريشا، ليقترن بعارضة الأزياء الأسبانية والفلبينية الأصل إيزابيل بريسلير، قبل أن يتركها ويعود إلى مدينة ليما مع زوجته السابقة وأم أولاده.

أما روايته (حفلة التيس) فهي سفر من أسفار كشف الديكتاتورية في العالم وتعرية أبطالها وكشف تغول الشخصيات المستبدة وأساليبها في إذلال الإنسان واحتقاره، ماريو ذاته الذي حاول الوصول إلى كرسي الرئاسة حينما ترشح لرئاسة البيرو عام ١٩٩٠. وحسنا خسر الانتخابات وإلا لحرمنا -فخامته- من أعمال أدبية خالدة، هي "ثمرة عبور الإنسان بين ما هو وما يريد أن يكون"، مثلما تحدث في كلمته حينما تسلم جائزة نوبل للآداب. قرأتُ مقالاته المنشورة في صحيفة الشرق الأوسط وأعترف له بفضل التعرف على كُتّاب وأعمال أدبية لم نطلع عليها، كما أحببنا كلماته عن المدن التي أحبها الكاتب سرديا وواقعيا مثل برشلونة وباريس وبرلين وبيروت أيضا. مؤلم أن يرحل كاتبك المفضل لا لكون الخلود ليس من صفة البشر، ولكن لأن الكاتب ذاته توقف عن مواصلة الحكاية. فوداعا يا يوسا، وداعا أيها البطل المتكتم.

• عن صحيفة عمان